الباب الأول

الأرض.. والجذور

إذا أردنا أن نقدم صورة من قريب للأمير تركى بن عبد العزيز فيصبح علينا أولا أن نستعرض هذه الأرض المقدسة التى ولد عليها.. وهذه الجذور العريقة التى ينتمى إليها..

إن هذا الحديث عن الأمير يدفعنا دفعًا إلى دراسات فى الجغرافيا وأبحاث فى التاريخ..

فالصورة المضيئة التى يسعد ويشرف البعض أن يلتقوا بها - صورة الأمير تركى - هى حصاد - رحلة تاريخ طويلة وعريقة..وهى أيضا ثمرة تفاعل عنيف بين البيئة والناس على أرض المملكة العربية السعودية..

ولنبدأ هذا الفصل.. أولاً بالأرض..

ثم نستكمله بالجذور..

● الأرض..

إنها مترامية الأطراف.. فالجزيرة العربية تقع بين قارتى أفريقيا وآسيا ..تفصلها عنهما مساحتان مائيتان كثيرتا التضاريس..إحداهما هى البحر الأحمر، والأخرى هى الخليج العربى..بينما يحدها من الجنوب الغربى خليج عدن..ومن الجنوب الشرقى خليج عمان..

وفى ثنايا هذه المساحات الشاسعة من الأرض تمتد المسالك المتعرجة التى عبرت منها إلى العالم أثمن هبة وافدة من الجزيرة العربية: ألا وهى «العقيدة الإسلامية».

وبالرغم من أن الجزيرة العربية اشتهرت فى العالم القديم بأنها مفتاح الشرق وبلاد الثروات الخيالية فإن أول بروزها على المسرح العالمى كان من خلال انتشار القرآن، ورسالة الإسلام..

لقد ولد صاحب هذه الرسالة: النبى محمد ﷺ فى مكة المكرمة فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تتعرض لهجمات البرابرة الذين اجتاحوا بقايا الإمبراطورية الرومانية..

ومن جهة أخرى فإن الغارات المتتالية التى شنها الفرس كانت قد أنهكت الإمبراطورية البيزنطية مما جعل الظرف مهيأ لانتشار الدين الإسلامى القائم على الخضوع لإرادة الله جل وعلا.

وعند وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام ٦٣٢ للميلاد فى السنة العاشرة للهجرة..كانت الجزيرة قد أضاءت شعلة انتقل نورها إلى الغرب عبر أفريقيا الشمالية وإلى الشرق نحو إيران وشبه القارة الهندية، ومن ثم إلى أقصى الشرق حتى أندونيسيا والفلبين..

منذ ذلك الحين أشع الإسلام بنوره على جميع أرجاء العالم.. وفى انطلاقة إيمان تجاوبية أخذ مئات الألوف من الحجاج يتوافدون إلى مكةالمكرمة والمدينة المنورة من كافة الأنحاء.. وتدليلًا على أن الإسلام مترفع عن القوميات فإن علم المملكة العربية السعودية يحمل عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»

* * *

وتتجاوز مساحة الجزيرة العربية مليوناً من الأميال.. تشغل منها المملكة العربية السعودية أكثر من ٨٧٠ ألف ميل مربع ويقطنها حوالى سبعة ملايين نسمة..

ويحد المملكة العربية السعودية من الشمال الأردن والعراق والكويت، ومن الشرق قطر والإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب اليمن وسلطنة عمان..

وليس فى المملكة أنهار جارية.. كما أن المناخ هو عموما حار جاف وخاصة فى

المناطق الوسطى..غير أنه كثيرًا ماتحدث عواصف رعدية مصحوبة بأمطار غزيرة فى شهور الشتاء..

أما فى المناطق الجبلية، فإن المناخ يميل إلى الاعتدال.. بينما نجد المناطق الساحلية شديدة الرطوبة..

وفى المناطق الداخلية مثل الرياض.. نجد أن فصول الصيف قد تكون شديدة الحرارة.. وفصول الشتاء معتدلة البرودة..

وباستثناء بعض الفترات التى تهطل فيها أمطار بصورة غير منتظمة.. فإن المناطق الصحراوية جرداء على وجه العموم.. ولكن حينما توجد مصادر للمياه فإن الواحات تقوم وتزدهر..

* * *

وتنقسم المملكة العربية السعودية إلى عدة مناطق إدارية، أهمها المنطقة الوسطى المعروفة باسم «نجد» وعاصمتها الرياض.. وهى فى الوقت نفسه عاصمة البلاد..

وهناك أيضا المنطقة الغربية المعروفة تاريخيا «بالحجاز» وأهم مدنها مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف..

أما المنطقة الشرقية وهى المعروفة تاريخيا «بالأحساء».. وعاصمتها الدمام..

وتعرف منطقة الجنوب تاريخيا باسم «عسير» وعاصمتها أبها.

وأهم مدن المنطقة الشمالية: تبوك

* * *

ونعود الآن إلى جدة.

قال البعض عنها إنها عروس البحر الأحمر.

ولكن هناك أيضا من يقول عنها إنها مدينة الجمال..

ثم هناك من يصر على تسميتها عروس المدن..

ولكنهم جميعا أجمعوا على عظمة هذه المدينة التى تضارع أرقى المدن فى العالم، والتى استطاعت أن تصل إلى هذا المستوى خلال نصف قرن من الزمان..

● إنها «جـدة»..

المدينة التى يسكنها الأمير تركى بن عبد العزيز آل سعود.. وهى أيضا المدينة التى تسكن فى قلبه..

* * *

وإذا كانت بيوت جدة البيضاء.. وأشجارها التى يصل عددها إلى ستة ملايين شجرة من ملامح الجمال بها.. فإننا نجد هذه اللمسات الفنية المتناثرة فى كل مكان.. والتى ابتدعها فريق من أكبر فنانى العالم العرب والأجانب..

فالذى يسير فى شوارع جدة سيتابع بشغف و إعجاب هذه الأعمال الفنية التى قدمها: هوفمان وهنرى مور وسيزار ولافونتى وجيوفانى وربيع الأخرس والدكتور صلاح عبد الكريم وعارف الريس وساريللى كاشيلا.. وغيرهم من كبار فنانى العالم..

وقد اعترف العالم كله وشهد بجمال جدة.. ولم يكن غريبًا أن تحصل مدينة جدة القديمة على جائزة التفوق من منظمة المدن العربية فى عام ١٩٨٥ لمحافظتها على التراث.. كذلك فازت مدينة الحجاج بمطار الملك عبدالعزيز الدولى بجدة بجائزة أغا خان عام ١٩٨٢، باعتبارها مدينة من أجمل المدن للمبانى العصرية التى تحافظ أيضا على التراث..

كذلك حصلت جدة على جائزة الاختيار كواحدة من أجمل ثلاث عمائر فى العالم أنشئت عام ١٩٨٤ للبنك الأهلى التجارى فى جدة.. أيضًا جائزة التفوق الفنى لأوربا بعام ١٩٨٣ لمتحف الفن العالمى بكورنيش منطقة الحمراء بجدة..

والذى يريد أن يصل إلى مكة المكرمة يمر بجدة..

كذلك فإن عشرات البواخر تتواجد حاليًّا فى ميناء جدة الإسلامى تعلن عن حياة تجارية نشطة وتعطى المكان حيوية وبهجة..

ومع وجود الأسواق الضخمة.. والاتصال الكبير بالعالم.. هناك أعداد هائلة من الناس:

هناك من جاء من داخل البلاد للترويح عن النفس..

وهناك من جاء من خارج البلاد فى طريقه إلى مكة المكرمة لأداء الزيارة.. او العمرة أو الصلاة..

وهناك أيضا من جاء إلى جدة فى طريقه إلى الطائف - مصيف الدولة الرسمى - ليستمتع بجوها المعتدل..

وهكذا - كما سبق القول - فإن جدة تموج بالحياة.. وتسبح فيها الأضواء.. وتتزين بأشجارها الخضراء وبيوتها البيضاء.. وتمتلئ بالأسواق العامرة.

وإذا كانت جدة الآن هى أهم ما يشغل الأمير ماجد بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة.. فإنه يذكر دائما هذا الجهد الكبير الذى بذله أمينها السابق محمد سعيد الفارسى الذى تقاعد الآن لأسباب صحية..

وبعشق شديد لمدينة جدة يقول محمد سعيد الفارسى:

- جدة من أقدم المدن فى المنطقة.. وقد ارتبط وجودها تاريخيًا بالقوافل القادمة تحمل ضيوف الرحمن إلى البيت العتيق فى مكة المكرمة، كما تحمل التجارات والبضائع من الجنوب فى اليمن إلى الشام فى الشمال.. ثم أصبحت مستودعا رئيسيًا للتجارة التى كانت تحملها السفن القادمة من الشرق..

وفى تاريخها القديم.. كانت جدة القديمة داخل سور حصين.. ويعيش بداخلها حوالى العشرين ألف نسمة..

ثم جاء الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ليدفع الحياة إلى هذه المدينة العتيقة الخالدة..

وكان أول ما فعله أن أمر بتوصيل مياه العين العزيزية من وادى فاطمة إلى جدة..

وكانت هذه الخطوة أولى خطوات جدة فى رحلة التطور والاتساع..

لقد تم هدم السور الذى كان يحيط بها..

وزاد عدد السكان.

وبها الميناء الضخم.. والمطار العظيم.. والجامعة.. والمدارس.. والمدينة الصناعية فى جنوبها..

ولكن ذلك لم يؤثر على ملامح المدينة القديمة.. فمازالت المبانى القديمة محلاة بزخارفها وواجهاتها.. وأصبحت هذه المبانى القديمة متاحف أثرية أو مطاعم وطنية.. أو مراسم للفنانين..

ولقد أهدى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز لسكان جدة أجمل واجهة بحرية للمدينة: «الكورنيش»..

وطول هذا الكورنيش حوالى ٤٠ كيلو مترا..

وإذا كانت العين تقف أمام أكثر نافورة بحرية ارتفاعا فى العالم والموجودة فى ميناء جدة.. وإذا كانت أجمل مبانى العالم قد ارتفعت أيضا فى جدة.. فإن آخر الأعمال الجمالية فى مدينة جدة هى المرتفعات..

إنها عمل فنى ضخم عند كوبرى الأربعين.. أمام المدينة القديمة.. وقد استغرق إعداد هذا العمل العظيم أكثر من عامين.. حيث صممه الدكتور صلاح عبد الكريم عميد كلية الفنون الجميلة بالقاهرة..

وفى هذا العمل الفريد من نوعه قام الدكتور صلاح عبد الكريم بتغطية الأركان العليا للأعمدة بتشكيل صينيات متراكبة متتالية إلى أعلى مع الاستفادة بتشكيلات أنصاف الدوائر والعقود وأشكال السقاطات والكوابيل ويتكون كل ذلك من أربعة عشر طابقًا يتوالى فيها من الداخل هيكل من الصلب يزن أكثر من سبعة أطنان بالإضافة إلى ألواح البرونز التى يصل وزنها إلى ثمانية أطنان تقريبا..

* * *

والآن.. أليس من الطبيعى أن يسكن كل هذا الجمال قلب الأمير تركى بن عبد العزيز..

* * *

● الجـذور:

والآن جاء الدور لنتحدث عن هذه الشجرة العريقة التى تمتد جذورها فى الأرض المباركة..

وهنا لابد أن يبدأ الحديث بمحاولة لرسم ملامح شخصية نادرًا مايجود التاريخ بمثلها..

إنها شخصية: «عبد العزيز آل سعود»..

إنه مؤسس «المملكةالعربية السعودية»..

وهو الزعيم الذى استعاد ملك آبائه بعد صراع احتاج إلى الحكمة والقوة والعزيمة..

وهو الزعيم المؤمن الصالح العادل..

وهو رجل الرحمة.. والصلابة..

وهو أخيراً الرجل الفريد الذى استطاع أن يقيم المملكة التى تزدهر بمرور السنين بفضل هذا الأساس القوى الذى أقامه..

وأهم أعمدة هذا الأساس: أبناؤه..

لقد نقل إليهم.. صفاته..

وزرع فيهم مبادئه..

وقبل أن نبدأ الحديث عن هذا الرجل العظيم.. تعالوا نسترجع بعض ملامح حياته وأسرته..

لقد ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن فيصل بن تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود فى الرياض فى العاشر من ذى الحجة عام ١٢٩٩ هجرية - الموافق لليوم الحادى والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٨٨٠ ميلادية..

ويرجع نسب الرجل الكبير إلى قبائل عنز بن وائل التى تمتد جذور نسبها إلى الرسول الأعظم محمد ﷺ..

وجريًا على تعاليم الشرع الشريف.. تزوج الملك عبد العزيز ولم يجمع بين أكثر من أربع نساء.. وقد رزقه الله من الأولاد ستين ذكرًا وأنثى.. منهم ستة وثلاثون من الذكور وثلاثون من الإناث..

وأبناؤه الذكور وفق تسلسل ولادتهم هم:

١ - تركى بن عبد العزيز (تركى الأول)
٢ - سعود.. الأخ الشقيق لتركى..
٣ - فيصل..
٤ - محمد بن عبد العزيز
٥ - خالد
٦ - ناصر
٧ - سعد
٨ - فهـد
٩ - منصور
١٠ - عبد الله
١١ - بندر
١٢ - سلطان
١٣ - مشعل
١٤ - مساعد
١٥ - عبد المحسن
١٦ - مشارى
١٧ - متعب
١٨ - طـلال
١٩ - عبد الرحمن
٢٠ - بـدر
٢١ - تركى (تركى الثانى)
٢٢ - نـواف
٢٣ - نايـف
٢٤ - فواز

٢٥ - سلمـان
٢٦ - ماجـد
٢٧ - عبد الإلـه
٢٨ - أحمـد
٢٩ - سطـان
٣٠ - تامـر
٣١ - ممدوح
٣٢ - مشهور
٣٣ - هذلول
٣٤ - عبد المجيد
٣٥ - مقـرن
٣٦ - حمـود

* * *

والآن.. إن أهم ماأخذه أبناء الملك عبد العزيز من والدهم العظيم كان:

(إيمانه.. وأخلاقه.. وشجاعته.. وذكاءه)..

ومن هنا يصبح الحديث عن الملك عبد العزيز هو نفس مايمكن أن نقوله عن أى ابن من أبنائه..

وهكذا يجب أن نجيب عن هذا السؤال الهام:

● من أين استمد الملك عبد العزيز كل هذه الحكمة وكل هذه المعرفة.. وكل هذه الشجاعة؟..

الإجابة عن هذا السؤال جاءت فى البحث الذى أعده الدكتور عبد الله سعيد أبو راس..

- «لقد كان المغفور له الملك عبد العزيز يكرر أكثر من مرة أنه لم يتعلم فى مدرسة.. كما كرر أكثر من مؤرخ أنه لم يصبر على المدرسة عندما بعثه أبوه إليها فى الخامسة، لأنه «وجد السير فيها بطيئا متعثرًا ووجد مستوى تفكيره وإدراكه أرفع من مستوى تلاميذها ودرجات إدراكهم..

وقد جاء ذلك فى الجزء الثانى من كتاب «صقر الجزيرة» الذى كتبه أحمد عبد الغفور عطار..

● ويقول الزركلى:

– «إنه لم يكن فى طبعه الصبر على الدرس، فلم يلبث أن انصرف عن مقاعد الأطفال إلى محاكاة الرجال».

غير أن هذا العزوف عن المدرسة لم يكن عزوفا عن التعليم والعلم، فلقد فتح الرجل لنفسه خلال حياته أكثر من مدرسة نظمها وأدارها بنفسه ليتلقى فيها التعليم والمعرفة فى الأوقات التى يختارها والأسلوب الذى حدده، فقد دفعه حب الاستطلاع الطبيعى وميله الفطرى للعلم إلى تنظيم دراسته، كما ظل دائما رغم مهام ومسئوليات بناء الدولة يرغب فى أن يستزيد دائمًا من العلم..

وهكذا نظم الملك عبد العزيز لنفسه مجموعة من المدارس تلقى فيها الخبرة والمعرفة.. هذه المدارس يرى البعض أنها ست مدارس متعاقبة تداخلت أزمان الدراسة فيها وتعاقبت مع أطوار حياة الملك المؤسس وظروف هذه الحياة..

● ويقول عبد الكريم رجب فى استعراضه للبحث الذى قام به الدكتور عبد الله سعيد أبو راس حول هذه النقطة:

– إن أولى هذه المدارس هى مدرسة القرآن..

فقد بدأ الملك عبد العزيز دراسته للقرآن فى وقت مبكر من عمره.. وقد تمكن من ختم القرآن الكريم فى عامة الحادى عشر..

ومن المؤكد أن الملك عبد العزيز لم يترك مدرسة القرآن طول حياته.. وأنه ظل طول عمره ينهل من الكتاب الكريم الحكمة والإلهام.. وكان يخصص وقتًا محددًا لقراءة القرآن فى كل يوم، وكان من عاداته الثابتة أنه كان يستيقظ قبل الفجر بنحو ساعة، فيقرأ سورًا من القرآن الكريم ويسجد ويتهجد..

● أما المدرسة الثانية، فهى مدرسة أبيه..

وهى مدرسة التراث الطويل للعائلة السعودية، فقد كان الإمام عبد الرحمن يرى فى ابنه «عبد العزيز» أمل المستقبل واستعادة المجد القديم وأنه كان يعده لذلك..

وقد بدأ إعداد الابن النابغة للحكم منذ أن ختم القرآن الكريم وهو لم يبلغ الحادية عشرة، فقد شرع ابتداء من هذه السنة - كما يقول فؤاد حمزة - فى مرافقة والده فى غزواته، وكان يحضر مجالسه العامة لاسيما مجالس القراءة، فاستفاد كثيرا من الإمام رحمه الله لأنه كان فقيهًا وعالمًا بأحوال العرب وتاريخهم..

وكانت هذه المشاركة المبكرة فى صنع التاريخ وتلقى دروسه فى مدرسة.. ضخمة للملك عبد العزيز عرف منها معنى الإمامة فى بيته منذ محمد بن سعود..

ولم يكتف عبد العزيز الشاب بسماع أخبار الانتصارات والأمجاد، بل عرف أسباب الفتن ومزالق التفرقة، ولم يكن الأمير الشاب يكتفى فى صباه بأن يسمع تاريخ أجداده من أبيه، بل كان يتابع صدى التاريخ حتى يجده..

وقد ظل الملك عبد العزيز يحفظ لهذه المدرسة الكبيرة حقها طوال حياة والده الإمام، فكان يرجع إلى أبيه فى كل مايهم من أمور الدولة، وقلما يعقد أمرا إلا بعد استشارته واستئذانه..

● أما المدرسة الثالثة فهى مدرسة الصحراء التى استمد منها الملك عبد العزيز الكثير من قوته ومارس فيها الكثير من إنتصاراته..

لقد بدأت تجربة الأمير الشاب مع تلك المدرسة فى النصف الأخير من رمضان عام ١٣٠٨هـ (١٨٩١ ميلادية) حيث وجد نفسه مع عائلته يتحمل مسئوليات الغزو ويدخل فى المفاوضات ويقوم بالأسفار، ويألف خشونة العيش، ويختبر تقلبات الزمن وطباع الزمن..

ولقد كانت مدرسة الصحراء مدرسة كبيرة للملك عبد العزيز ظل يتابعها ويواصل الدراسة فيها أيضا طوال حياته.. فقد كان يحيط نفسه دائماً فى رحلاته وغزواته بالخبراء والأدلاء والعارفين بالصحراء، كما كان تعليمه الذى تلقاه فى هذه المدرسة أساسًا لتحركاته الإصلاحية ولتكوين جيشه المجاهد..

● والمدرسة الرابعة، هى مدرسة الصراع الدولى.. حيث أمضى الملك عبد العزيز حوالى عشر سنوات فى الكويت، تلقى خلالها فن السياسة العملية من خلال متابعته للمناورات والمحاورات التى كانت تدور أمامه مع ممثلى الحكومات الانجليزية والروسية والألمانية والتركية..

ومن خلال متابعته لهذه الألوان من الصراع تعلم عبد العزيز الشاب الكثير مما مكنه فيما بعد من استعادة ملك آبائه، ومن التعامل مع الإنجليز والحفاظ على حياده واستقلاله وحماية بلاده من ألوان الحماية التى فرضتها بريطانيا على دول الخليج العربية..

● أما المدرسة الخامسة، فهى مدرسة آل الشيخ..

وهذه المدرسة التى ترتبط ارتباطا تاريخيا وثيقا بمدرسة الترك التى تلقى فيها دروس أبيه وتاريخ أسرته..

وهذه المدرسة فى حقيقتها هى مدرسة علماء آل هذا البيت العريق الذى ارتبط تاريخه بتاريخ الأسرة السعودية منذ بيعة الدرعية التاريخية..

وفى هذه المدرسة النبيلة تلقى الملك عبد العزيز علوم الدين عن أهلها، ودرس فيها قضية التوحيد والجهاد تحت رايته وعلمته معنى الدولة الإسلامية وطرق تحقيقها وتنفيذها..

وقد درس الملك عبد العزيز فى طفولته على يدى الشيخ « عبد الله بن عبد اللطيف » الذى أعد كراسة صغيرة للأمير الطفل لتعليمه أصول الفقه والتوحيد، وقد ارتبطت حياة الشيخ الكبير بحياة الملك عبد العزيز ارتباطا وثيقا، واستمرت هذه الصلة حتى وفاة الشيخ.. الذى كان مدرسة كبرى، درس فيها الملك عبد العزيز نفسه والكثير من رجالاته وعلماء عصره..

ولم تكن هذه المدرسة مجرد مدرسة يتعلم فيها الملك عبد العزيز نفسه، بل كانت مؤسسة تعليمية وجهها الملك لتعليم أمته ولمناقشة قضاياها وخاصة قضايا الإصلاح والتجديد.. كما كانت هذه المؤسسة التعليمية الدينية أكبر معاون له فى التصدى لآراء المخالفين لدعوته والوصول إلى الإقناع والاتفاق بين علماء المسلمين جميعا فى أفكارهم المختلفة حول سلامة السلفية التى حمل لواءها..

لقد استطاع الملك عبد العزيز أن يحول مدرسته الخاصة التى بدأت بكراسة صغيرة فى الفقه والتوحيد إلى جامعة إسلامية مفتوحة كانت النواة والأساس للجامعات الإسلامية التى أنشأتها المملكة فيما بعد..

● أما المدرسة السادسة فهى مدرسة المستشارين التى تميزت بكونها مدرسة فريدة

فى ولائها للملك عبد العزيز وعلاقتها به وفى تنوع خبراتها وأهمية رجالاتها.. فقد انتقى الملك بنفسه رجالاتها فردًا فردًا.. ويروى عنه أنه قال:

«أريد رجالا يعملون بصدق وعلم وإخلاص حتى إذا أشكل على أمر من الأمور رجعت إليهم فى علته وعملت بمشورتهم فتكون ذمتى سالمة، والمسئولية عليهم وأريد الصراحة فى القول»..

واعتبار هذه المجموعة من المستشارين مدرسة من المدارس التى نظمها الملك عبد العزيز لنفسه وتعلم منها الكثير يرجع إلى طريقة تنظيم العمل التى وضعها الملك واختطها للدراسة مع مستشاريه.. فالملك فى هذه المدرسة يستفيد بالخبرة والعلم، ولا يحمل مستشاريه سلطات تنفيذية أو مسئوليات اتخاذ القرار..

وقد جعل هذا الأسلوب، اجتماعات المستشارين اجتماعات تعليمية مهمة لتبادل المعلومات والرأى والمناقشة كأنها حلقات دراسية كما يدور فى الجامعات..

ورغم تعدد هذه المدارس وتنوعها وتعدد الخبرات التى أضافتها إلى رصيد الملك عبد العزيز الثقافى والفكرى.. فإن الملك لم يقصر نفسه على هذه المدارس الست، بل إنه نظم لنفسه برنامجا متصلاً من التعليم المستمر، ظل يواظب عليه طوال حياته ويواصل من خلاله دراسته وتتبعه للأفكار والآراء الجديدة..

* * *

ونصل إلى هذه الملحمة التى لم تتكرر فى التاريخ فى أى بقعة من بقاع العالم..

ففى أحد أيام عيد الفطر المبارك من عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م) قام شاب فى العشرينات من عمره يملؤه الإيمان بالله والطموح والرغبة فى الجهاد من أجل توحيد كلمة المسلمين وإعلاء كلمة الله على رأس ستين رجلاً.. ببطولة جريئة وشجاعة حقق الله له فيها النصر باستعادة عاصمة بلاده وأهم مدينة فيها - الرياض - وإذ دخلها فى ٥ شوال عام ١٣١٩هـ (١٢ كانون الثانى ١٩٠٢) محققا بذلك البداية لتأسيس صرح دولة شامخة البنيان قوية الأساس موحدة الأركان يفخر أبناؤها ويسعدون بانتمائهم إليها..

كان ذلك الشاب البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود الذى بدأت انتصاراته تتلاحق منذ ذلك اليوم، واستمر جهاده أكثر من ثلاثين عاما، حتى

استطاع أن يقيم «المملكة العربية السعودية» معتمدا فى ذلك على الله ثم على ما وهبه إياه من شجاعة وحكمة وفطنة ودهاء وهى خماسية ما استقرت فى قلب زعيم مؤمن بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا مكن الله له النصر المؤزر فحقق لشعبه الأمن والأمان والرخاء والاستقرار..

● وفى ذلك يقول أحد المؤرخين:

– « إن استرجاع جلالة المغفور له الملك عبد العزيز يرحمه الله مدينة الرياض كان نقطة البدء ومحور الارتكاز فى إنشاء الدولة العصرية الحديثة: «المملكة العربية السعودية».

ومن الرياض إنطلق عبد العزيز يوحد القبائل المشتتة ويجمع الصفوف المبعثرة ويرسى دعائم الحق والعدل والسلام والأمن والطمأنينة مترسمًا فى كل مايصدر عنه كتاب الله الكريم وسنة الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام..

* * *

ويرى المؤرخون أن شخصية الملك عبد العزيز بنيت على سبعة أعمدة أنشأ عليها مملكته وهى:

● الدين:

فقد كان الملك عبد العزيز يرحمه الله طوال حياته مسلماً تقيًّا ورعًا يتبع أوامر الشريعة بكل تفاصيلها، وكان نادرًا مايتحدث مع أحد دون أن يستشهد بآية من القرآن الكريم الذى كان يخصص نصف ساعة من كل يوم لقراءاته مستقيًا منه فيضًا من الحكمة والإلهام.. ولقد جعل الدين لحياة عبد العزيز هدفًا بحيث كلما رسخ كيان مملكته زادت خدمته للإسلام بما كان يقوم به من أعمال.. كما كان عمق معرفته بالدين الإسلامى من الأمور التى جعلته يعد من أعظم قادة المسلمين عبر التاريخ، كما أنه قدم خدمة للشريعة الإسلامية لم يقدم مثلها أى زعيم فى ذلك الزمن..

● كرمه وعفوه:

فقد كان سخاؤه طبيعيًّا لاتكلف فيه فكان يعطى بلا تقتير، وكان حينما يكتب الله له النصر على خصومه يحفظ لهم كرامتهم ويحيطهم بكرمه وعفوه وعطفه.

● قدرته على الكتمان والحفاظ على السرية:

إذ كان - يرحمه الله - يخفى خططه وبذلك لم تتسرب هذه الخطط أبدًا إلى خصومه..

● الشجاعة:

كان الملك عبد العزيز من أعظم الرجال البواسل فى تاريخ الجزيرة العربية الحديث.. لأنه ما من إنسان قام بمثل المهمة التى قام بها دون أن يكون مقاتلاً من الدرجة الأولى، وكانت لديه إلى جانب الشجاعة صلابة هادئة لرجل يرى بوضوح الخطر المحدق فى خضم الأحداث فيواجهها مواجهة صحيحة، ولم يفخر عبد العزيز يومًا من الأيام ببطولته ولا كان ينظر إلى نفسه على أنه بطل من الأبطال حتى أنه قال ذات مرة:

- «إن ماوهبنى الله لم يكن بسبب قوتى بل بسبب ضعفى وقوته سبحانه وتعالى».

وكان هذا الشعور هو الذى حثه على ما قام به من شجاعة وإقدام، ولم يكن فى الواقع يشعر بأنه كان أشجع من الآخرين لكن الله منحه موهبة خاصة، إذ كانت ردود فعله فى الأوقات الحرجة من السرعة والذكاء بحيث تمكنه من التصرف بطريقة أفضل من غيره..

●قدرته الفريدة على المثابرة:

فقد كان عبد العزيز إذا وضع لنفسه هدفا معينا بذل قصارى جهده للوصول إليه دون كلل، ورغم أنه واجه كثيرًا من الصعوبات من أجل توحيد دولته فإن تلك الصعوبات لم تكن لتثنى عزيمته عن الوصول إلى تحقيق طموحاته..

● النزاهة والعدل:

كان تعامل الملك عبد العزيز مع كل إنسان يتسم بالنزاهة التامة والصراحة الكاملة.. كما أن من الأمور البارزة فى شخصيته أنه مهما كان الاستفزاز شديدًا فإنه لم يسهم أبدًا فى القيل والقال.. ولكونه متدينًا مستقيمًا فقد كانت نظرته إلى الجريمة نظرة

متشددة.. وقد أمدته الشريعة الإسلامية بنظام كامل طبقه بتجرد تام.. وكان أحد المبادئ الأثيرة لديه قولته المعروفة:

- «لايدوم الملك بدون عدالة»

وكان إذا قام أى إنسان من مواطنيه برفع دعوى ضده فإنه يستجيب لحكم الشرع الإسلامى مهما كانت نتيجته..

● قـوة العقل:

إن المثل القائل «إن الوقت المعطى للفكر أعظم توفير للوقت» يوجز بدقة مواقف الملك عبد العزيز.. فقد وهبه الله ذاكرة وإدراكاً وملاحظة وفطنة خارقة للعادة.. وبالإضافة إلى ذلك كانت تحيط به هالة نفسانية من النبل والحكمة.. تواكبها قامته الفارعة ومظهر رجولته.. مما جعل له تأثيرًا عميقًا على كل من جلس لديه أيا كان..

كما كانت لديه ذاكرة قوية غير عادية، فهو مثلاً كان عالمًا بكل قبائل مملكته وأفخاذها وتواريخها وتقاليدها.. وكان يستطيع فى بضع ثوان من بدء حديثه مع أى شخص أن يعرف - من طريقة كلامه - القبيلة التى ينتسب إليها والفرع الذى ينحدر منه..

وإلى جانب هذا وذاك.. فقد كان الملك عبد العزيز يرحمه الله متحدثًا بارعًا كما كان بليغًا فى كل خطبه.. وكانت سيطرته على نفسه من القوة بحيث أنه لم يتكلم بكلمة فى غير محلها أو زائدة عن المقصود، ولم يعرف عنه أنه قال شيئا ندم على قوله فيما بعد أو ودَّ لو أنه لم يقله.. كما كان كلامه العادى حافلاً بالمجازات الذكية والحكم والأمثال التى تجعل سامعه يود لو أنه لايتوقف عن الحديث أبدا..

* * *

وقد كان أهم إنجازحضارى حققه الملك عبد العزيز- أعماله إنجازات حضارية- هوتوحيد البلاد تحت اسم «المملكة العربية السعودية».. وصدر بذلك مرسوم ملكى بتاريخ (٢١ جمادى الأولى عام ١٣٥١هـ ١٨ أيلول عام ١٩٣١).. وحد به جميع مناطق الدولة التى أقامها.

ونستطيع أن نخرج من هذا الإنجاز المتقدم بالمؤشرات التالية:

● انصهار المجتمع السعودى كله فى بوتقة واحدة بعد أن كان مبعثرًا مفرقًا..

● دعم الوحدة الوطنية للبلاد وتعميق الولاء للنظام الذى أوجده الملك عبد العزيز ودعم به قدرات أبناء المجتمع السعودى على القيام بأدوارهم وواجباتهم ومسئولياتهم تجاه ربهم ودينهم أولا، ثم تجاه بلادهم ومجتمعهم..

● استتباب الأمن والاستقرار وبداية مسيرة الرخاء والتقدم.

● كان قول الرسول ﷺ:

«إن يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار»

هو النهج الذى انطلق منه الملك عبد العزيز لتحقيق وحدة البلاد، الأمر الذى ترتب عليه أن كل الأيدى والسواعد تعاضدت وتكاتفت من أجل بناء المجتمع الجديد..

● وحدة الكلمة وجمع الصفوف من أجل مستقبل أفضل وغد أحسن كانا الهدف والنتيجة التى ترتبت على عملية التوحيد هذه..

● أصبح للمملكة - بفضل الله - دور قيادى وريادى بارز أدته بأمانة وإخلاص تجاه القضايا العربية الإسلامية والعالمية..

● تحقيق العدالة بين الجميع كما جاء فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ..

* * *

وحينما وجد جلالة الملك عبد العزيز - يرحمه الله - هذه البلاد كان قد تصور مُثُلاً وحياةً غير المثل والحياة القبلية التى كانت قائمة من قبل.. ولم يكتف بالتصور، بل نقل هذا التصور إلى واقع محسوس.. فحول مجتمع الجزيرة العربية من قبائل متقاتلة إلى شعب علمه معنى الوطنية والاستقرار وكسب العيش الحلال.. وعمل على نقله من طور البداوة والرعى والارتحال إلى طور الزراعة والاستقرار.. ونشر بينه روح المعرفة وطلب العلم، واهتم بمكافحة الخرافات والبدع فى معتقداته ليعيده إلى صفاء الإسلام.. فكان هذا العمل الضخم تبديلاً لمفهومات مجتمع بأسره ونقله من طور متخلف إلى طور جديد متقدم فى طريق الحضارة البشرية..

وكان قيام المملكة العربية السعودية فى الظروف التى نشأت فيها أعظم خطوة تطورية عرفتها الجزيرة العربية فى السنوات الألف الأخيرة..

* * *

ومن الضرورى هنا أن نلقى الضوء على الحياة الاجتماعية للملك عبد العزيز..

لقد كان من أكثر أوقات الملك عبد العزيز سعادة الالتقاء بأفراد أسرته وأبنائه وأحفاده وتفقد شئونهم والوقوف على أوضاعهم.. فكان يحب أن يحيط به أكبر عدد ممكن من أقربائه.. كما كان يعقد فى الساعة السابعة من صباح أغلب الأيام مجلسًا خاصًا يحضره كبار شخصيات العائلة وأبناؤه وأقاربه ويتناقشون فى مشكلة من المشكلات أو يكتفون بالسلام عليهم.. وكان يجتمع كل أسبوع بكل رجال أسرته..

ورغم الثروة التى بدأت تتدفق على البلاد فى أواخر عهده فإنه كان يعيش عيشة تقشف وزهد، كما كان يحب القهوة بالهيل حتى أصبح خبيرا بها.. وكان من الأشياء المحببة إلى نفسه صيد الظباء والحبارى فى فترات راحته القصيرة.. وكان يذهب أحيانًا إلى مكان خارج مدينة الرياض يسمى «الخفس» تتجمع فيه مياه الأمطار ويعد أكثر طراوة وخصبا من الصحراء المحيطة به..

وفى عام ١٣٧٣هـ (١٩٦٣م) انتقل الملك عبد العزيز إلى رحمة الله تعالى..

لقد توفى الرجل المعجزة بعد أن أوجد فى شبه الجزيرة العربية وفوق رمالها وصحاريها دولة بالمفهوم الحديث للدولة.. لها أنظمة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله.. وسيادة كاملة على أراضيها وحدود معترف بها دوليًا.. وشعب موحد ينعم بالأمن والرخاء والاستقرار..